حكايات ألف ليلة

21

نور الدين وشمس الدين



بقلم: أ. عبد الحميد عبد المقصود
رسوم: أ. إسماعيل دياب
إشراف: أ. حمدي مصطفى

المؤسسة العربية الحديثة

يُحْكَى أَنَّهُ كانَ فى سالفِ العَصْرِ والأَوانِ ـ بأَرضِ (مصرَ) ملكٌ عظيمُ الشَّأْنِ ، ذو عَقْلٍ وعَدْلٍ وإِحسانٍ .. وكانَ له وزيرٌ عاقلٌ خبيرٌ ، له بالأُمورِ حكْمَةٌ وتَدْبيرٌ .. وكانَ هذا الْوزيرُ قدْ صارَ شيْخًا كبيرا ..

ويُحْكَى أنَّ هذا الْوزيرَ كانَ له ولَدانِ .. الأَكْبرُ كانَ اسْمُهُ (شَمْسَ الدِّينِ) والأَصْغَرُ كانَ اسْمُهُ (نورَ الدِّينِ) .. وقدْ علَّمهُما أَبوهُما شُئُونَ الْوِزارَةِ ..

فلمَّا ماتَ الْوزيرُ حزِنَ عليْه الْملكُ ، وقالَ لولَدَيْه :

ـ أَنْتُما عنْدى فى منْزلةِ أَبيكُما ، ولذلكَ فقدْ ولَّيْتُكُما الْوِزارةَ بعْدَهُ .. كلُّ واحدٍ منْكُما يتولَّاها شهْرًا ..

وهكَذا عاشَ (شمْسُ الدِّينِ) و (نورُ الدِّينِ) بعْدَ وفاةِ أَبيهِما فى رِعايةِ الْملكِ .. وكانَ الْملكُ كلَّما أَرادَ السَّفَرَ ، سافَرَ معَ أَحدِهِما ، بيْنما يبْقَى الآخَرُ لإِدارةِ شئُونِ الْمملَكةِ ، حتى يعودَ ..

وذاتَ مرَّةٍ عزَمَ الْملكُ على السَّفرِ فى الْيَوْمِ التَّالى ، وكانَ الدَّوْرُ على (شمْسِ الدينِ) ليُسافِرَ معَه ، فسهِرَ الأَخَوانِ يتحدَّثانِ فى تلْكَ اللَّيْلةِ ، فقالَ (شمسُ الدِّينِ) لأَخيه :

ـ لقدْ كبرْنا يا أخي ، وكلُّ أملي في الحياة أنْ أتزوجَ أنا وأنتَ في ليلةٍ واحدةٍ ، حتى نُنجبَ أولادًا وبناتٍ ..

فقالَ (نورُ الدينِ) :

ـ وهذا أملي أنا أيضًا يا أخي ..

فقالَ (شمسُ الدينِ) مازحًا :

ـ هبْ أننا تزوجْنا في ليلةٍ واحدةٍ ، ووضعتْ زوجتي بنتًا ،

وزوجتك ولداً ، في يومٍ واحدٍ ، فهل توافق على زواج ابنك وابنتي ؟

فقال (نور الدين) :

ـ بالتأكيد يا أخي ، ولكن ما هو المهر الذي تطلبه من ابني ، حتى تزوجه ابنتك ؟

فقال (شمس الدين) :

ـ لن أقبل بأقل من ثلاثة آلاف دينار ذهبا ، وثلاثة قصور ، وثلاثة بساتين ..

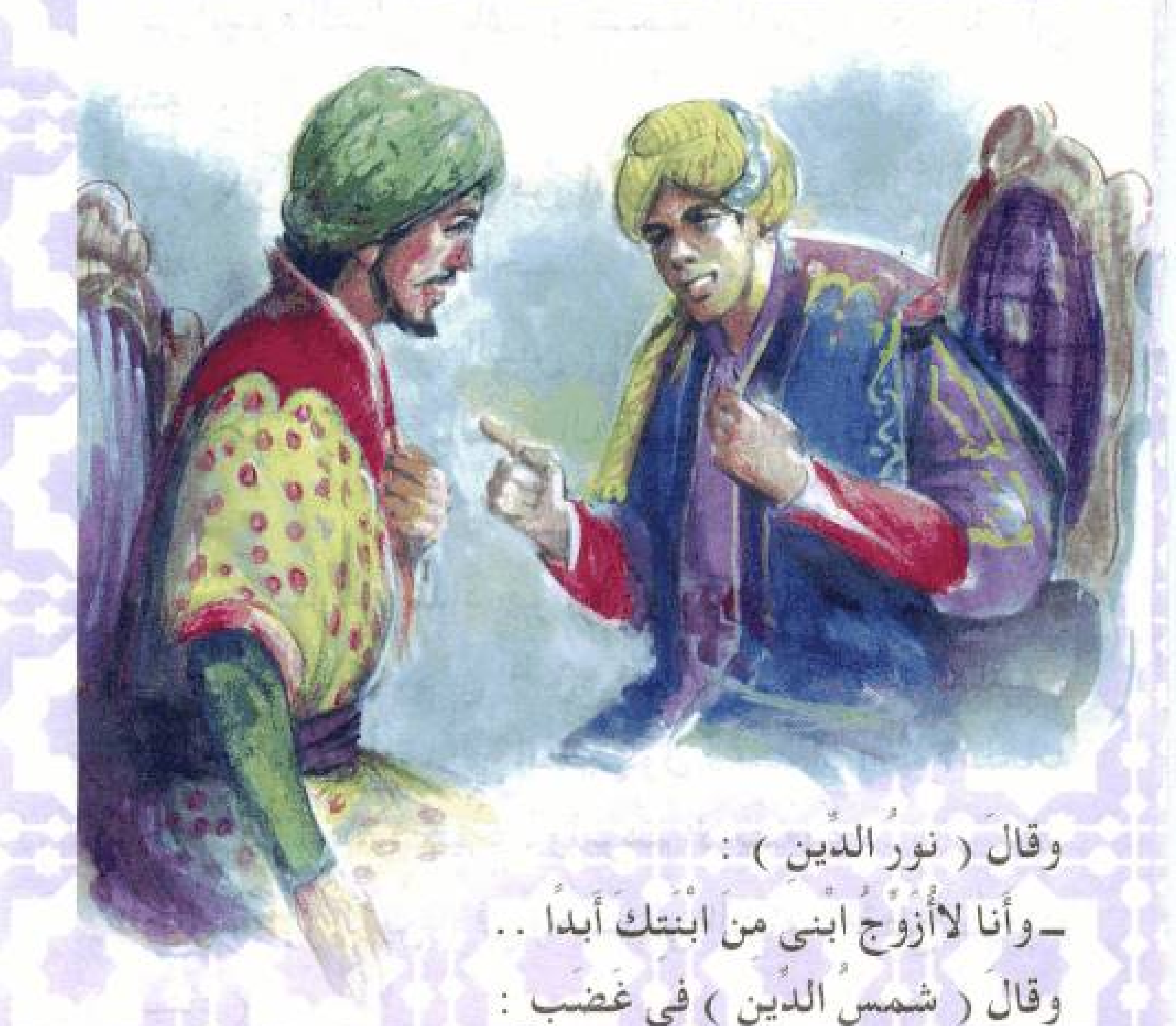
فلما سمع (نور الدين) ذلك انتفض واقفا ، وقال في غضب ، وكأن الأمر قد صار حقيقة :

ـ لقد بالغت كثيرا في مهر ابنتك ، وكأنها أفضل من ابني ..

كنت أنتظر منك أن تزوج ابنتك من ابني بدون مهر ..

وقام (شمس الدين) واقفا ، وقال في غضب :

ـ ما هذا الذي تقول ؟ هل ابنك أفضل من ابنتي ، حتى أزوجها له بدون مهر ؟! والله لا أزوج ابنتي لابنك ، حتى ولو وزنتها ذهبا ..



وقالَ (نورُ الدِّينِ) :

ـ وأنا لا أُزوِّجُ ابنى من ابْنَتِكَ أبدًا ..

وقالَ (شمسُ الدِّينِ) فى غَضَبٍ :

ـ عِنْدَما أعودُ مِنْ رِحْلَتى مع المَلِكِ ، سيكونُ لى معكَ تَصَرُّفٌ يَضَعُكَ عِنْدَ حَدِّكَ .. سأطْلُبُ من المَلِكِ أَنْ يعزِلَكَ عَنِ الْوِزارة وأَسْتَقِلَّ بِها وَحْدى ..

انْتَهَى النِّقاشُ بالْقَطيعَةِ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ فى لَحْظَةِ غَضَبٍ ، ومِنْ أَجْلِ شَىْءٍ ما زالَ فى عِلْمِ الْغَيْبِ ، ولم يَحْدُثْ بعدُ ..

وفى الْيومِ التَالِى سافر (شمسُ الدِّينِ) مع الْملِكِ فى رِحْلَته . .

أمَّا (نورُ الدِّينِ) فقدْ قررَ أمْرًا آخرَ . . قَرَّرَ الرَّحيلَ عنْ (مصْرَ) فى أَثْناءِ غيْبةِ أخيه . .

ولذلكَ توجَّه (نورُ الدِّينِ) إلى خزانَةِ أمْواله ، فأَخذَ جرابًا كبيرًا وملأهُ بالقطعِ الذَّهبيَّةِ ، وأعدَّ نفْسهُ لسفرٍ طويلٍ . .

ثم أمرَ غلْمانهُ بإعْدادِ جوادِه ، وارتدى أفْخرَ ثيابِه . . ثمَّ وضعَ جرابَ الذَّهبِ فى الْخُرْجِ الَّذى يحملُ فيه متاعهُ ، وركبَ جوادهُ منْطلقًا إلى الْمجهولِ ، بعْدَ أنْ أخْبرَ غلْمانهُ أنهُ خارجٌ فى نزْهةٍ قصيرةٍ ، وأمرهمْ ألاّ يتبعوهُ . .

انْطلقَ (نورُ الدِّينِ) فى رِحْلَتهِ إلى الشَّامِ ، فقَطعَ صحْراءَ (سيْناءَ) . .

وبعْدَ عدَّةِ أيامٍ كانَ قدْ وصلَ إلى مدينةِ (الْقُدْسِ) فاسْتراحَ بها ليْلةً ، ثم واصلَ سفرهُ ، فوصلَ إلى مدينةِ (حلَبَ) . . ومنْ (حلَبَ) سافرَ إلى (الْبصْرةِ) ، فقررَ أنْ يسْتريحَ بها ليْلةً قبْلَ أنْ يواصلَ سفرهُ ، فنزلَ فى (خانٍ) وطلَبَ منْ سائسِ (الْخانِ) أنْ يأْخُذَ جوادَهُ ليُطْعمهُ



وَيَسْقِيهِ ، وَيَغْسِلُ جِسْمَهُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ..

فَلَمَّا أَخَذَ السَّائِسُ الْجَوَادَ إِلَى النَّهْرِ وَعَلَيْهِ السَّرْجُ الْمُذَهَّبُ ، رَآهُ وَزِيرُ (الْبَصْرَةِ) وَقَدْ كَانَ جَالِسًا فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ فِى شُرْفَةِ قَصْرِهِ ، الْقَرِيبِ مِنَ (الْخَانِ) الَّذِى نَزَلَ فِيهِ (نُورُ الدِّينِ) فَقَالَ الْوَزِيرُ فِى نَفْسِهِ :

ـ إِنَّ هَذَا الْجَوَادَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ، أَوْ أَمِيرٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ ، أَوْ وَزِيرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ .. وَهَذَا السَّرْجُ الثَّمِينُ الَّذِى عَلَيْهِ يَبْدُو غَرِيبًا عَنْ سُرُوجِ (الْبَصْرَةِ) وَلَابُدَّ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدِمَ إِلَيْهَا

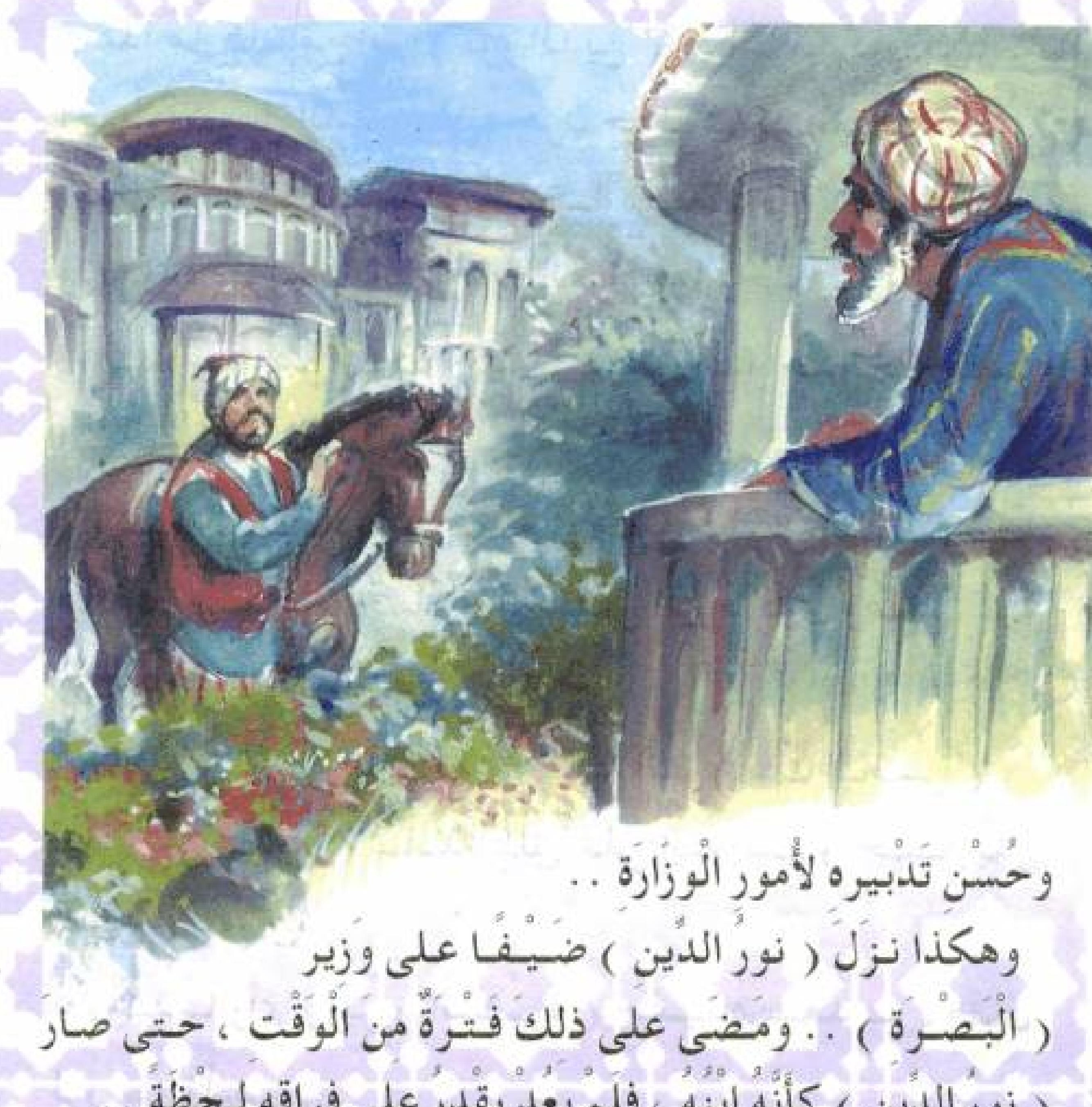
حَالاً . . ولكنْ كيْفَ يدْخُلُ عظيمٌ منَ الْعُظمَاء (الْبَصْرة) ولا أَعلم بقدومه ، مع وزيرها ؟!

وتملَّك الفضول الْوزير ، لمعرفة من صاحب ذلك الْجواد ، ولأى سبب جاء إِلى (الْبصرة) . . فنادى السَّائس ، وسأَله عن صاحب هذا الجواد . . فأَخبره السَّائس بأَنَّه شخصٌ تبدو عليه مظاهر أَبناء الْملوك قدم إِلى (الْبصرة) ونزل فى (الخان) الذى يعمل به . .

فلمَّا سمع الْوزير ذلك الْكلام ، غادر قصره فى الحال متجهًا إِلى (الْخان) ، فقابل (نور الدين) ورحَّب به ، ثمَّ عرَّفه بنفسه ، وسأَله عن حاله ، وعن الْبلد الذى جاء منه . . .

فأَخبره (نور الدين) بأَنَّه قدم من (مصر) وأَنَّه وزيرٌ وأَخوه وزيرٌ ، وأَبوه كان وزيرًا ، وحكى له قصته من الْبداية ، وما حدث له مع أَخيه الأَكبر ، وكيف أَنَّه قرر أَن يعزله عن الْوزارة . .

فلمَّا سمع وزير (الْبصرة) قصَّة (نور الدين) تأَثَّر من أَجْله ، وطلب منه أَن يأْتى لينزل عليه ضيفًا فى قصره ، خاصَّة وأَنه كان يسمع كثيرًا عن عقل أَبيه وحكمته ،



وحُسْنِ تَدْبيرِه لأُمورِ الْوِزارَةِ ..

وهكذا نزَلَ (نورُ الدِّينِ) ضَيْفًا على وَزير (الْبَصْرَةِ) .. ومَضَى على ذلك فَتْرَةٌ من الْوَقْتِ ، حتى صار (نورُ الدِّينِ) كأَنه ابنه ، فلم يعد يقدرُ على فراقه لحْظَةً ..

وكَانَ لوزيرِ (الْبَصْرَةِ) ابْنَةٌ غايَةٌ في الْحُسْنِ والْأَدَبِ ، فزَوَّجَها له ..

وعاشَ (نورُ الدِّينِ) مع زَوْجَتِهِ في قَصْرِ وَزيرِ (الْبَصْرَةِ) فانقَطَعَتْ أَخْبارُه تمامًا عن أَخيه ..

هذا ما كانَ من أمْرِ (نورِ الدِّينِ) .. أمَّا ما كانَ من أمْرِ أخيه (شمْسِ الدِّينِ) فإنه حزِنَ حزنًا شديدًا لغيابِ أخيه ، وندِمَ ندمًا شديدًا على شجارِه معهُ في تلْكَ اللَّيلةَ ، وتهديدِه بعزْلِه من الوزارةِ والانْفرادِ بها وحدَه ..

ولمَّا يئِسَ من عودةِ أخيه ، خطبَ ابنةَ أحدِ تجَّارِ مصرَ الأثرياءِ ، وتزوَّجها ..

وتشاءُ المقاديرُ أنْ تضَعَ زوْجَةُ (شمْسِ الدِّينِ) بنتًا غايةً في الحُسْنِ والجمالِ ، في نفسِ اليومِ الذي وضعَتْ فيه زوْجةُ أخيه (نورِ الدِّينِ) ولدًا ..

فأطْلقَ (شمْسُ الدِّينِ) على ابْنتِه اسمَ (ستِّ الحُسْنِ) .. أمَّا (نورُ الدِّينِ) فقدْ أطْلقَ على ابنِه اسمَ (حسنِ بدْرِ الدِّينِ) ..

وعندَما رأى وزيرُ (البصْرةِ) حفيدَهُ سعدَ به ، وقالَ لـ (نورِ الدِّينِ) :

- لقدْ صِرْتُ شيْخًا كبيرًا يا ولَدي .. وآنَ لي أنْ أسْتريحَ من أعْباءِ الوزارةِ ، وكُلُّ أمنيَتي أنْ أجْعَلكَ وزيرًا مكاني قبْلَ أنْ أموتَ ..

فقالَ (نورُ الدِّينِ) :



ـ أطالَ اللَّه في عمرِكَ يا عمِّي ..

وأضافَ الوزيرُ قائلاً :

ـ غداً أذهبُ بكَ للملكِ ، وأرجوه أنْ يجعلكَ وزيراً مكاني ..

وفي اليـومِ التـالي اصطحبَ الوزيرُ زوجَ ابنتـه (نورَ الدينِ) إلى قصـرِ الملكِ ، فاستأذنَ في الدخولِ عليه ، فلمـا وَقَفَ بين يديه ، عرفَه بصهرِه (نورِ الدينِ) قائلاً :

ـ هذا زوجُ ابنتي ، وهو ابنُ وزيرِ مصـرَ الأسبقِ ، وكمـا ترى أيُّها الملكُ ، فأنا صرتُ شيخاً كبيراً ، ولم تعدْ لي قدرةٌ على تحمُّلِ أعباءِ الوزارةِ ، وتصريفِ شئونِها ، ولهذا فأنا أرجوكَ أنْ تجعلَه وزيراً مكاني ..

فقالَ المَلِكُ :

ـ قد أنعمتُ عليه بأن يكونَ وزيراً مكانك ..

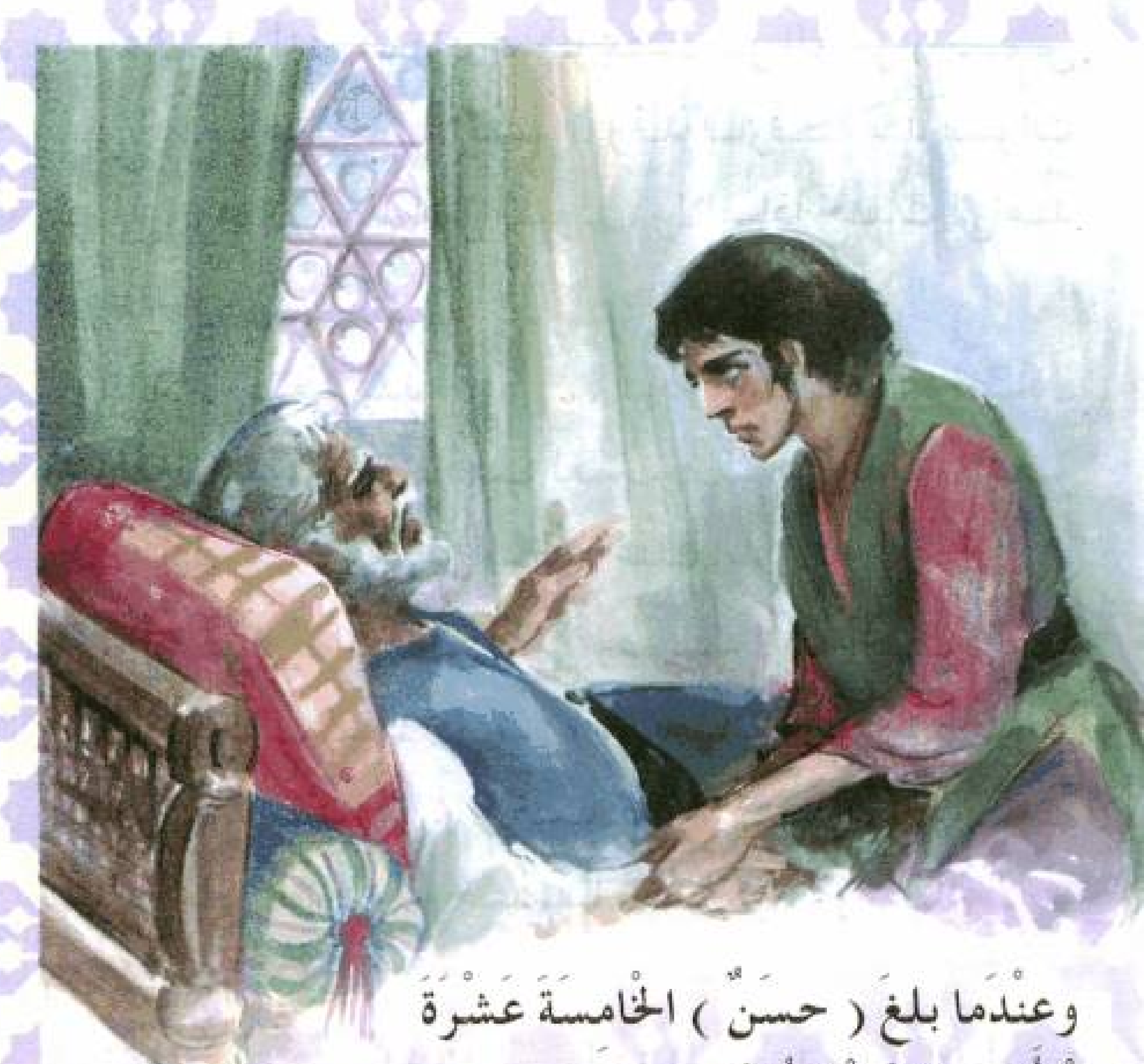
وهكذا تقلَّدَ (نور الدين) الوزارة ، وصار وزيراً للبصرة ، بدلاً من والد زوجته ، فأنعم عليه الملك بالهدايا ، وجعل له راتباً كبيراً ..

وعندما بدأ (نور الدين) يدير شئون الوزارة ، ويدير أمور الحُكم أُعجب به الملك ، فقربه إليه ، وزاد عطاءه له ..

وبمرور الأيام استطاع (نور الدين) أن يكون ثروة كبيرة ، وصارت له تجارة كبيرة ، ومراكب كثيرة تسافر بالبضائع بين الأقطار البعيدة والقريبة ..

وخلال ذلك كان ابنه (حسن بدر الدين) يكبر ، فأحضر له أبوه المعلمين والمؤدبين فى القصر ، فعلموه كل العلوم المعروفة فى ذلك الوقت ، حتى برع فيها ، وفاق أهل زمانه ، فأُعجب به أبوه ، وبدأ يصطحبه معه إلى ديوان الوزارة ، حتى يعلمه شئون الحكم ، وأمور الوزارة ..

فلما تعلَّم (حسن) هذه الأمور وبرع فيها صار أبوه يصطحبه معه إلى الملك .. وراح يثنى على ذكاء (حسن) وعلمه ، برغم صغر سنه ، وينصت إلى مناظراته للعلماء والأدباء والشعراء وتفوقه ..



وعندما بلغ (حسن) الخامسة عشرة من عمره قال الملك لأبيه :

ـ هذا الولد سيكون له شأن عظيم ، وأخشى أن ينافسك فى أمور الوزارة ، وهو مازال صغيرا . .

وعندما بلغ (حسن بدر الدين) الثامنة عشرة من عمره ، أصيب والده (نور الدين) بمرض مفاجئ ، وشعر بدنو أجله ، فأحضر ولده ، ووصاه وصيته ، ثم قال له :

ـ اعلَمْ يا ولَدى أنَّ لكَ عمًّا بمصرَ هو الوزيرُ (شمسُ الدينِ) .. وهو أخى الأكبرُ ، وقد فارقْتُه منذُ سنواتٍ طويلةٍ ، وهو لا يعلمُ أينَ أكونُ ، ولا ماذا حدثَ لى منذُ فارقته ..

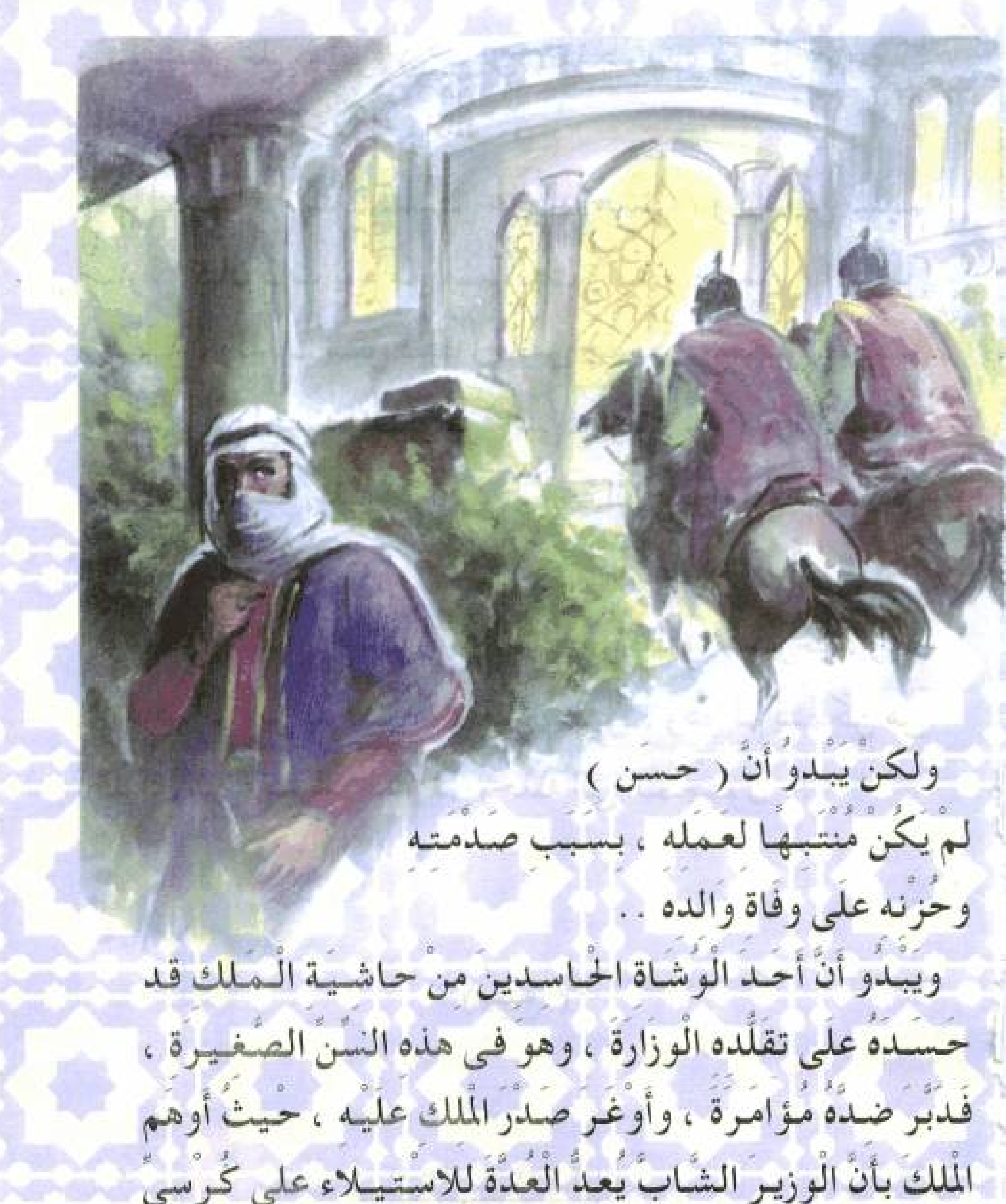
وأنا الآنَ أشعرُ بدنوِّ أجلى .. فإذا فارقْتُ هذه الحياةَ ، وحدثَ لكَ مكروهٌ ، فاذهبْ لعمِّكَ (شمسِ الدينِ) بمصرَ وعرِّفْه بنفسِكَ ، وهو لن يتخلَّى عنكَ أبدًا ..

ولما انتهى (نورُ الدينِ) من وصيتِه لابنِه أحضرَ ورقةً وقلمًا ، وكتبَ فيها كلَّ شىءٍ عن حياتِه وابنِه وزواجِه من ابنةِ وزيرِ (البصرةِ) .. وكتبَ كلَّ شىءٍ بتاريخِ حدوثِه .. ثمَّ وقَّعَ على الورقةِ ، وختمَها بخاتمِه .. وأعطاها لابنِه (حسنٍ) ..

فأخذَ (حسنٌ) الخطابَ ، وأخفاهُ بينَ البطانةِ والظِّهارةِ داخلَ عمامتِه ، ثمَّ خاطَ عليه بإحكامٍ ..

ولم يمضِ على ذلكَ عدةُ أيامٍ ، حتى ماتَ الوزيرُ (نورُ الدينِ) ، فحزِنَ عليه ابنُه وزوجتُه والملكُ ، وكلُّ من عرفوه ..

وبعدَ وفاةِ (نورِ الدينِ) انتقلَ ابنُه (حسنُ بدرُ الدينِ) ليحُلَّ مكانَه فى الوزارةِ ..



ولكن يبدو أنّ (حسن)
لمْ يكُن منتبهًا لعمله ، بسبب صدمته
وحزنه على وفاة والده . .

ويبدو أنّ أحد الوُشاة الحاسدين من حاشية الملك قد حسده على تقلّده الوزارة ، وهو في هذه السن الصغيرة ، فدبّر ضده مؤامرة ، وأوغر صدر الملك عليه ، حيث أوهم الملك بأنّ الوزير الشاب يُعدّ العُدّة للاستيلاء على كرسي العرش ، ولهذا غضب الملك غضبا شديدا ، وأصدر أمره

بالقَبْضِ علَى وزيرِه (حسَن) وتجرِيدِه من كُلِّ الأَموالِ والأملاكِ الَّتي تركَهَا لهُ والدُهُ ..

تحرَّكَ عساكرُ المُلكِ للقبْضِ علَى (حسَن) وكانَ من بينِهم حارسٌ كانَ ذاتَ يومٍ من مماليكِ والد (حسَن) الرَّاحلِ وأتْباعه ، ولذلكَ سبقَ ذلكَ الحَارِسُ جميعَ العَسْكرِ إلى قصرِ (حسَن) وأخبرَه بالمؤامرةِ التي دبِّرتْ ضدَّهُ ، وبالعَسْكرِ القَادمينَ للقَبْضِ علَيْه ، وأمرَهُ بسرْعةِ الرَّحيلِ قبْلَ أنْ يقعَ في أيْديهِم ..

وهكذا ركَبَ (حسَن بدرُ الدِّينِ) وانطلقَ مسْرعًا ، وهوَ لا يَدْرِي إلى أيْنَ يذْهبُ ، ولا ماذا يفْعلُ ، وهو لمْ يتمكَّنْ منْ أَخْذِ أيِّ شيْءٍ من أمْوالِه ، في رِحْلَته إلى المجهولِ ..

(يُتبع)

رقم الإيداع : ٧٩٣٣ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولي : ٥ ـ ٧٦٦ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧